



المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة



اسم الموضوع : جدران العراق ولبنان والخيط الإيراني

عنوان الموضوع : جدران العراق ولبنان والخيط الإيراني

تاريخ النشر : 11/11/2019

اسم الكاتب : غسان شربل

الموضوع :

قبل ثلاثين عاماً، أوفدتنى «الشرق الأوسط» لتغطية أخبار جدار برلين المتداعي. ولم يكن مستغرباً أن تنتابني، كصحافي عربي شاب، أسئلة عن العالم الذي أنتمي إليه. تزايدت حدة الأسئلة لاحقاً حين فر الاتحاد السوفياتي إلى متحف التاريخ، وتساقط أيتام الكرملين تبعاً في المقهى، قرب الجدار، رحلت أفكر. متى ستسقط الجدران العربية؟ ليس فقط الجدران التي تمنع هذه الدولة العربية من التواصل مع جارتها، بل أيضاً جدران الداخل التي كانت تحتجز العقل والقلب والرتنين. كان اسم حاكم العراق صدام حسين. وحاكم ليبيا معمر القذافي. وحاكم سوريا حافظ الأسد. وكان قصر بعثا اللباني في عهده جنرال صاحب اسمه ميشال عون، وبصفته رئيساً لحكومة شكلها من العسكريين. اليوم، غاب الزعماء الثلاثة، ويقدم قصر بعثا في عهده عون رئيساً منتخباً تشهد بداية النصف الثاني من عهده سقوط جدران كثيرة بفعل الحراك الشبابي والطلافي. أما العراق الذي اعتقدنا أن صدام حسين كان الجدار الوحيد الذي يمنعه من النقاط أنفاسه واللحاق بالعصر، فيشهد هو الآخر تصدع جدران صيغة المحاصصة والتقسام التي أنهكت البلاد. كان سقوط الجدار نهاية حقبة وبداية أخرى. ساد الاعتقاد أن العالم سيعيش طويلاً في عهده القطب الواحد المنتصر. ثم تبين أن أعباء قيادة العالم أكبر من أن تضطلع بها دولة واحدة، حتى ولو امتلكت الاقتصاد الأول والجيش الأقوى. ولم يتأخر الوقت كثيراً، فقد شهدنا روسيا تطل من الركام السوفياتي، وبزعامة الكولونيل الذي كان يقيم قرب الجدار وحمل الجرح في قلبه، واسمه فلاديمير بوتين. ثم شهدنا الصعود الصيني المذهل، حين تمكن ورثة ماو من إخراج مئات ملايين الصينيين من الفقر بأفكار لم ترد أبداً في «الكتاب الأحمر» الذي دبجه «الزبان العظيم». أسقط الوريثة جدار ماو بلا ضجيج، لكنهم حفظوا من عهده هالة ضريحه وآلة رقابة واستقرار، اسمها الحزب الشيوعي، بعدما غسلوه في نهر العولمة. ثم ما هو أهم وأخطر مما تقدم. أدى تراكم الأبحاث إلى سلسلة متلاحقة من الثورات العلمية والتكنولوجية غيرت أيضاً علاقة الفرد بالعالم، وسمحت بتدفق حر للأخبار والتعليقات والصور. لم يعد باستطاعة أحد اعتقال المعلومات عند نقطة الحدود، ومطالبتها بالحصول على تأشيرة دخول، والخضوع لامتحان جهاز الأمن قبل التسرب إلى عقول المواطنين؛ إنها ثورة وسائل التواصل الاجتماعي. وإذا كان التاريخ سجل أن رشاش الكلاشينكوف لعب دوراً كبيراً في تحقيق الثورات والانقلابات في العالم، فإن التاريخ سيسجل لاحقاً أن الهاتف الذكي أعنف من الكلاشينكوف وأكثر فاعلية وخطراً. أسقطت ثورة الاتصالات كثيراً من الجدران. الجدران التي شيدها الأهل بفعل المحافظة والخوف. والجدران التي أقامها الأمن لحراسة النظام. والجدران التي أقامتها الحكومات لمنع الدماء الجديدة الحارة من التدفق في عروق المجتمع. هزت ثورة الاتصالات كل شيء. وطرحت علامات استفهام حول كل شيء. أسقطت المحظورات واستدرجت إلى النقاش ما كان يستحيل اقتياده إلى المشرحة. هل ترانا نبالغ إذا قلنا إن تدفق الشبان العراقيين إلى الساحات ينذر بسقوط جدار الفساد والدولة المتصدعة وخيمة الطوائف التي كادت تقتل اللبنانيين، ومعهم روح لبنان؟ وهل نبالغ إذا قلنا إن عراقياً جديداً يولد ولن يقبل بأقل من دولة عصرية المؤسسات تقوم على الشفافية والنزاهة والكفاءة والانخراط في العصر؟ وهل نبالغ إذا قلنا إن لبنانياً جديداً يولد ويرفض أن يستدعى إلى الأعراس الطائفية بولائمه ومجازرها، وإنه لن يقبل بأقل من دولة القانون والانفتاح والقضاء المستقل؟ أبحرنا طويلاً في اليأس. قتلنا الانتظار المديد. ثم خيبتنا انهيارات «الربيع العربي»، وتقدم قوى الماضي للاستيلاء على أحلام الناس. وأخافتنا قدرة الأنظمة على الترويع وتغيير مسارات الحركات وإغراقها في الدم والإرهاب. لكننا نكاد نشهد اليوم ولادة عربي جديد. لا يريد الانتصار على الطائفة الأخرى ولا المذهب الآخر. يريد تعليمًا يفتح أمامه فرص العمل والتقدم والإبداع. يريد شرطياً يعمل تحت سقف القانون. ومحكمة لا يزجرها مدير المخابرات. يريد دولة طبيعية وعصرية لا تعيش دائماً على شفير حرب أهلية، ولا تتجرب الليتاسيين والانتحاريين والأحزمة الناسفة. العربي هنا وهناك يريد دولة الشرف لا دولة الجدران. ما يجري في العراق ولبنان يستحق التوقف عنده من قبل الجميع. لا يمكن اعتقال نهر التاريخ مهما بلغت القدرة على تشييد السدود والجدران. على السلطات العراقية أن تقرأ وتسمع وتستنتج. الأمر نفسه بالنسبة إلى السلطات اللبنانية. ولأن الخيط الإيراني حاضر بقوة في العاصمتين، وتستندان إليه في مقاومة رياح التغيير، فإن على إيران نفسها أن تقرأ وتسمع وتستنتج. يصعب الاعتقاد أن الشاب الإيراني لا تراوده الأحلام نفسها التي تراود الشاب العراقي والشاب اللبناني، رغم خصوصية أوضاع كل دولة. إيمان النفع في جمر الثورة لا يوجب إلى الأبد الاستحقاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. جدار الاشتباك الدائم مع الغرب لن يخفي أرقام الاقتصاد ووضع العملة وارتفاع معدل الفقر. وعلى المسؤولين الإيرانيين أن يتذكروا أن الثورة الصينية أنقذت على يد من صالحوها مع حقائق التقدم الاقتصادي وتحسين حياة الناس، وأن الاتحاد السوفياتي انهيار بسبب الفشل الاقتصادي ورفض القراءة في مشاعر الناس. اتهام المحتجين في العراق ولبنان بتلقي الأموال والأوامر من السفارات لغة لا تحل مشكلة المتهم ولا المتهم. شبان أبرياء بهواتف ذكية ومخيلات غنية وإرادات صافية يسقطون الجدران. من لا يستمع إليهم يقف في المعسكر الذي سيمسى عاجلاً أو أجلاً معسكر الخاسرين. لا يحق لإيران أن تكون الجدار الذي يمنع التغيير في العراق ولبنان. *نقلنا عن صحيفة الشرق الأوسط